محمد حسنين هيكل

الخليج العربى.. مكشوف

تداعيات تفجيرات نووية فى شبه القارة الهندية

دار الشروق

الخليج العربي.. مكشوف

تداعيات تفجيرات نووية في شبه القارة الهندية

الطبعة الأولى
٩ يوليو ١٩٩٨

الطبعة الثانية
١٥ يوليو ١٩٩٨

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مقدمة

هذه الصفحات نص محاضرة قدمتها فى بيروت يوم السابع والعشرين من شهر يونيو ١٩٩٨ ـ وكان ذلك فى القاعة الكبرى لقصر العدل وبدعوة من نقابة المحامين فى لبنان .

ولقد تشرفت بزيارة عدد من أعضاء مجلس النقابة بالقاهرة ـ واستجبت دون تردد لأسباب عديدة بينها قيمة المنبر العلمى الذى أتحدث منه ، والدور الحضارى للمدينة التى أتحدث فيها ، والأهمية الفائقة للحظة التى يتوافق معها موعد الكلام .

وقضيت فى بيروت أسبوعا كاملا بين السادس والعشرين من يونيو وحتى الثالث من يوليو ١٩٩٨ ـ وقد تخللته رحلة سريعة إلى دمشق بدعوة كريمة من الرئيس حافظ الأسد سعدت فيها بحوار طويل معه امتد على مسافة خمس ساعات ونصف الساعة .

وعلى أية حال فإن ذلك الأسبوع ما بين بيروت ودمشق كان كله حوارا متصلا لم ينقطع سواء حول الموضوع الذى اخترت أن أتحدث فيه ، أو حول عديد من الموضوعات فرضت نفسها قبله وبعده وحوله فى عاصمتين عربيتين

كلتاهما الآن أمام حوارات كثيرة مع النفس ومع الغير، ومع العالم ومع العصر.

وربما أن بعضا مما جرت وتجرى حوله الحوارات الدائرة والضرورية فى بيروت ودمشق يستحق شيئا من الالتفات فى عواصم أخرى غيرهما، وربما أيضا أنه من هنا، ومن رغبة فى توسيع دائرة الحوار، رأت «دار الشروق» أن تطبع هذه المحاضرة التى تشرفت بعرضها فى قصر العدل فى بيروت يوم السابع والعشرين من شهر يونيو ١٩٩٨ لتكون تحت تصرف جمهور أوسع.

ومع أن الإعلام اللبنانى على اختلاف اتجاهاته أبدى كرما شديدا إزاء ما قلت، وأفسح له على مساحة الصفحات وعلى مدى انتشار الموجات الإذاعية والتلفزيونية فوق ما قدرت، وبينه أن بعض القنوات رأت إذاعته من قصر العدل مباشرة وعلى الهواء ـ فإن دار الشروق رأت أن طبع المحاضرة فى القاهرة فى نص مكتوب وكامل ـ يمكن أن يكون إضافة إلى ملف حوار يتصل بالموضوع الذى تناولته فى بيروت ويحيط وراءه بموضوعات أشمل وأكمل.

محمد حسنين هيكل

لقد تشرفت بتلقى دعوتكم الكريمة إلى هذا البلد الكريم ـ تجديدا وإحياء فى العين والقلب ـ لروابط إنسانية وقومية وثقافية قاربت بين مصر ولبنان فى إطار جامع عربى، أوسع وأشمل.

وزيادة على ذلك فإن الطريق من القاهرة إلى بيروت رحلة سعيدة لأسباب عديدة من بينها أنها تبدأ من مدينة عربية مفتوحة للتفكير والتعبير إلى مدينة عربية ثانية مفتوحة للتفكير والتعبير.

وصحيح أن بعضنا يرى هذا الانفتاح فى كل من القاهرة وبيروت واصلا مرات إلى درجة الانفلات ـ ثم هو يغرى أخوة لنا أشد حرصا وأكثر تحفظا فى مدنهم على الإقبال بشهية لممارسة أشواقهم إلى التفكير والتعبير ـ والانفلات أيضا ـ على الساحات المفتوحة فى القاهرة وبيروت وفى شئونها ـ إلا أن ذلك ليس سيئا، بل لعله مفيد.

وأعرف أن بعضنا فى المدينتين يعتريهم نوع من الحساسية إزاء هذه الأحوال ـ يرونها مرات ودون استئذان تخطيا للمسافة بين المباح والمستباح ـ إلا أن هذه الحساسية مبالغ فيها أحيانا، ذلك أنه من الضرورى أن يكون للأمة فى بعض المواقع منها منفذ ومتنفس ومجال ـ تتلاقى وتحتك وتتخابط فيه ـ عوامل الضعف والقوة، ونوازع الأمل والإحباط، ومشاعر الفرح والغضب.

وأعرف أن الساحات المفتوحة لها تكاليفها وأعباؤها وأكثرها على الأعصاب، لكن الأمم العظيمة لا تستطيع التهرب من ضرائبها. وضرائب الأمم ـ خلافا لضرائب الأفراد ـ يدفعها القادرون عليها قبل المكلفين بها ـ لأن توزيع ضرائب الأمم لا يحسب على وعاء الثروة المالية، ولكن يحسب على عمق التجربة الحضارية.

حضرات السيدات والسادة

بعد الشكر والعرفان لكم ولمجلس نقابة المحامين فى لبنان على هذه الدعوة الكريمة إلى بلد كريم، أظننى مطالب باعتذار مباشر أقدمه إلى النقيب شخصيا، ذلك أنه حين تفضل بالحديث معى أول مرة ـ كان اقتراحه أن يكون لقاؤنا اليوم عن «حقوق الإنسان» أو شأن يتصل بها لأن هذا الموسم من نشاط نقابتكم مخصص لها ضمن احتفالات مرور خمسين سنة على الإعلان العالمى بشأنها.

ويتذكر سيادة النقيب أننى أظهرت ترددا، ووجدته مستغربا وعرضت عليه وجهة نظر مؤداها أن قضية حقوق الإنسان قضية نبيلة وهى جديرة بكل ما يعطيه لها ذوو النوايا الطيبة من الناس جماعات وأفراداً، لكن هذه اللحظة فى أوطاننا معرضة لالتباس مزدوج، يمس القضية فى حد ذاتها، ويمس القضية فى أسلوب التعرض لها:

وإذا بدأنا بالقضية فى حد ذاتها فسوف نجد أن العدوان على حقوق الإنسان فى بلادنا تجاوز كل حد محتمل. ولو أخذنا فى الاعتبار أنه على المنطقة الممتدة من كابول إلى كازابلانكا ـ وفيها حوالى الثلاثين بلدا منها عشرون بلدا عربيا ـ فإنه فى سنة ١٩٩٦ ـ وهى آخر سنة توافرت فيها تقديرات يمكن الارتكان عليها

ـ فقد دخل إلى السجن ـ وفى بعض المرات خرج منه ـ وبعيدا عن ولاية القضاء الطبيعى ٦٢٠ ألف رجل وامرأة، وأعدم خارج هذه الولاية سبعة وثلاثون ألف رجل وامرأة، واختفى بلا أثر ثلاثة آلاف وثلاثمائة رجل وامرأة ـ وتلك لمحات عن الانتهاكات لا تحيط بها جميعا كما أنها لا تتعرض لأنواع من الحقوق يعتبرها الضمير الإنسانى مطلوبة وحتى مقدسة، ابتداء من الحق فى الصحة والعمل وحتى الحق فى العلم والسعادة!

فإذا انتقلنا من القضية فى حد ذاتها إلى أسلوب التعرض لها ـ فنحن أمام محنة من تضارب المشاعر والولاءات:

ـ من ناحية فإن قضية حقوق الإنسان ـ بالمعنى الذى نعرفه فى أوطاننا ـ هى فى المقام الأول قضية سياسية أو هكذا يتحتم أن تكون. وإذا تحوَّلت إلى قضية خيرية فقد أصبحت مساوية لفكرة الإحسان والصدقة عندما يراد لها أن تحل فى المجتمعات محل فكرة التنمية والتقدم.

والشاهد أن قضية حقوق الإنسان لا تنشأ أو تظهر إلا فى بلدان غاب عنها الأساس الشرعى للحكم واعتمدت فيه السلطة على الغلبة ـ وهنا فإن انتهاك حقوق الإنسان يتم عن طريق اغتصاب الإرادة الوطنية وليس فقط عن طريق سجن وتعذيب مئات أو آلاف الأفراد.

وأنتم هنا وبعلمكم وخبرتكم تعرفون أن الغلبة تستطيع أن تفرض قانونها، لكن الشرعية هى التى تعطى القانون روحه وتحفظ قيمته ـ فإذا دخلنا فى حديث عن الشرعية فى العالم العربى فلست متأكدا إلى أين نصل؟!

ـ ومن ناحية ثانية فإن السياسة الأمريكية فى فترة ما بعد انتهاء الحرب

الباردة خطفت قضية حقوق الإنسان ـ كما كان يجرى خطف الطائرات فى زمن سبق ـ ثم راحت تحاول استغلالها بطريقة انتقائية لا تصدر عن حرص والتزام وإنما تقصد إلى تشهير وابتزاز لمن تريد هذه السياسة أن تطالهم بعقاب ، أو تردهم إلى طاعة ، أو تشير إليهم بتحذير . وتلك ليست تجربة جديدة أو فريدة فى التاريخ فقد سبق الاتحاد السوفييتى فى زمانه إلى استغلال حلم إنسانى جليل وقام باحتجاز مطلب السلام رهينة فى موسكو ضمن لعبة من أشهر ألعاب الحرب الباردة .

والحاصل أن ذلك فى جانب منه عبء على قضية حقوق الإنسان لأنه يسمح لبعض الأنظمة أن تستنفر نزعات الوطنية المكبوتة فى تنفيس يرتد مفعوله سلبا على حقوق المواطنين وعلى أمنهم .

يتصل بهذا أن أى حديث يستوفى مطلبه فى قضية حقوق الإنسان ذاهب إلى بعيد !

ذاهب على سبيل المثال إلى التمييز العنصرى ، وذاهب إلى حصار وتجويع شعوب بأكملها ، وذاهب إلى قيام أجهزة دولية كبرى بمتابعة ومراقبة كل رسالة ، وكل اتصال تليفونى فى أى ركن من أركان العالم .

والحرص على مقاومة تلك التجاوزات يَرِد صراحة أو ضمنا فى إعلان حقوق الإنسان ، لكننا بالخبرة المباشرة نعرف أن القوة عالمية أو محلية لها مزاج انتقائى ـ يأخذ من مواد القانون ما يريد ، ويُجَمِّد باقيه بالتبريد !

□

وعلى أية حال فإنه فى اتصال لاحق تفضل النقيب وترك لى حرية الحديث كما أختار ، لكنه طلب ـ وهو فى ذلك على حق ـ أن أبلغه بحيث يكون هناك عنوان يطبع على بطاقة دعوة إلى هذه القاعة . وسمحت لنفسى أن أقدم له مشروع عنوان لما أنوى أن أتحدث فيه ، وكان عن «خطوة ممكنة فى مستقبل ممكن» . فقد خطر ببالى من متابعة أحوال العالم العربى فى الفترة الأخيرة أن الأمة مهددة بالغرق فى بحر من الكلام لا يقول شيئا ولا يحرك إلى فكر أو فعل . وخطر ببالى فى مواجهة طوفان من الشك أدى بالأمة فى النهاية إلى حالة من شبه العجز ـ أنه قد آن الأوان لنشارك جميعا فى دعوة لاستنهاض عوامل القوة الباقية أو الكامنة فى عزم الأمة كى تكرس جهدها لهدف واحد هو العمل على تثبيت وعيها بذاتها وبمستقبلها ، واستعادة أقصى الممكن من إرادتها بعد أن جرى التركيز ـ ومنذ أكثر من ثلاثين سنة ـ على إضعافها وتفكيك روابطها ـ وكان اعتقادى كما هو اعتقاد كثيرين أن ذلك أشد لزوما بالنظر لاحتياجات الحاضر والمستقبل وكلاهما تقدم وتمهد له الآن صرخات عالية توحى بنهاية للتاريخ ، وبصراع بين الحضارات ، وبأشياء أخرى مثل العولمة والكوكبة إلى آخره . . . وكلها مما يستحق أن ندرسه ونفحصه ونتعرف عليه معرفة علم وفهم .

ولقد بدا لى أن بعضا مما نسمعه من صرخات يحتاج إلى مناقشة معمقة يتوجب علينا فيها أن نسائل العصر قبل أن نسايره ، وألاّ نركض وراءه دون أن نتبين إلى أين ؟ والظاهر أن بعض توجهات التفكير العربى تصور لنا أننا أمام عصر يجىء إلينا شلالا متدفقا ، وغلابا يوزع القوة والحضارة والرقى على البشرية ، ويدفع مجتمعاتها ـ برضاها أو دونه ـ إلى الاستغناء عن أى جامع قومى أو هوية ثقافية .

ولقد كان يمكن فهم ذلك لو أن العولمة كانت دعوة إلى حكومة عالمية واحدة تكون مسئولة عن تقدم الجميع وحقوق الجميع وأمن الجميع . ومثل تلك الدعوة علا صوتها فى فترات من التاريخ سبقت ، آخرها ما حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بقنبلة «هيروشيما» ، وبادر رجال من أمثال «ألبرت آينشتاين» و«برتراند راسل» أفزعهم خطر القوة النووية وفعلها فى الحرب وفى السلام ، وكان اجتهادهم أن يكون احتكار هذه القوة الجديدة الهائلة لحكومة عالمية تكون فى يدها وحدها هذه السيطرة الهائلة والمخيفة على قوى الطبيعة . ولم يتحقق حلم الحكومة العالمية ، ولم يكن وقتها ـ ولا هو الآن ـ قريبًا من التحقيق .

وربما نرى أن العولمة فى تأثيرها الأكبر هى إلغاء للمسافات هواء وفضاء ، لكنها ليست إلغاء للجغرافيا بتضاريسها وكتلها الإنسانية الهائلة ، ثم إنها ليست نهاية للتاريخ وإنما تسريع لإيقاعه .

وبالتالى فإن العولمة لا تنفض القارات والمحيطات من فوق سطح الأرض وإنما تحاول ضبط حياتها على اللحظة نفسها ـ لكن ضبط اللحظة لا يذيب التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأمنية بين المجتمعات ، ولعله يرفع حدتها وتفاعلاتها ، وذلك يستوجب على التجمعات الإنسانية أن تحافظ على تماسكها أكثر وتعيش الزمان العالمى الواحد بكامل طاقتها وحيويتها .

ولعلكم تتذكرون أن الرئيس الفرنسى جاك شيراك الذى كان ضيفا عليكم هنا قبل أسابيع تحدث عن مشروع الفرانكوفونية مُزَكِّيا له باعتباره شراكة مع خمسمائة مليون لسان بالجامع الواحد للغة ثانية وحيدة ! لذلك يبدو غريبا أن تنزع بعض مدارس الفكر العربى التى تقول بالعلم

إلى استعارة مذاهب الأحكام المطلقة بالتعميم القاطع ، فإذا الفكرة القومية ـ بجامع لغة النطق الأم ـ وإذا الجغرافيا والتاريخ والثقافة والأمن إلى آخره ـ أطلال لا تستحق حتى الوقوف أمامها للبكاء ، وإذا الوطنية متاع قديم ، وإذا كل تجربة فى الحاضر العربى وأى رؤية لمستقبله عبث . وإذا شاعت مثل هذه الفتاوى أن تستند إلى نفاد صبر من ضعف الأوضاع العربية وترديها ـ فإننا لا نستطيع معاقبة الجسم على علله ، بدل معالجته من هذه العلل .

ولقد بدا أن إلحاح أوضاع مستجدة فى عالم متغير دفعنا على عجل نحو حركة لم تحدد لنفسها اتجاها بل الأغلب أنها اندفعت قبل أن تعرف لنفسها موقعا تتحرك منه ، والنتيجة أن الكلام لم يزد فى معظم الأحيان عن أن يكون كلاما ساكتا ـ كما يقول التعبير السودانى الشائع ـ وبمعنى أنه كلام لا يقول شيئا لأنه لا يدفع إلى فكر أو فعل . ثم إن كثرة الكلام بعصبية الحركة لذاتها جعلت الكلام يتحوَّل فى أوطاننا إلى صناعة معلبات فيها وصفة مستخلصة من أعشاب الفلسفة والفكر والسياسة والإعلام والإعلان معجون كله ببعضه ، ثم أصبحت هذه المعلبات صناعة شبه ثقيلة حتى إن العالم العربى يشهد كل يوم ما بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠ اجتماع : فيها «المؤتمر» ، وفيها «الندوة» ، وفيها «حلقة النقاش» ، وفيها «دائرة الحوار» ، وفيها «ورشة العمل» ، وفيها جلسة «استثارة العقول» brain storming ـ والتقدير المعتمد ـ لدى العديد من مراكز البحث فى القاهرة وبيروت وواشنطن ـ أن تكلفة كل مناسبة من هذه المناسبات حوالى ثلاثة آلاف دولار ـ بعض المناسبات أكثر ، وبعضها أقل ، لكن المتوسط يصل بإجمالى الحساب إلى مليون دولار يوميا يدفعها العالم العربى لكى يتكلم مع نفسه ، وذلك غير كلامه أيضا مع نفسه فى وسائل إعلامه المتعددة من

صحافة وإذاعة وتلفزيون ، ولو أجرينا حسابا له ـ هو الآخر ـ لوجدنا التكلفة فادحة ، ثم إنها فى بعض ممارساتها انتهاك لعقل الإنسان لا يقل مأسوية عن انتهاك حقوقه !

والآن فإن اعتذارى الذى أقدمه للنقيب ولكم أن الأحداث تخطت وتجاوزت ، وبالتالى فإن ما أستأذن فى عرضه ليس الموضوع الذى تفضل النقيب باقتراحه ـ ولا الموضوع الذى سمحت لنفسى أن أقدم إليه عنوانه فيما بعد ـ وإنما هو موضوع ثالث يتصل بالتفجيرات النووية التى وصلت إلينا أصداؤها فى الشهر الماضى ـ قادمة من شبه القارة الهندية .

إننى ترددت قبل المجازفة بطرح هذا الموضوع الثقيل على هذا المحفل الجليل ، لكنه بدا لى أن رد الفعل العربى تجاه التطورات فى شبه القارة الهندية مثير للقلق ، لأنه اتسم بنوع من التثاقل على المستوى الرسمى ، وبنوع من التسرع على المستوى الشعبى !

والحاصل أن الداعى إلى القلق ليس هو انتشار الأسلحة النووية خارج الدائرة التى تريد احتكارها ـ أى الخمسة الكبار أصحاب العضوية الدائمة فى مجلس الأمن ـ فقد كان العالم يعرف عن يقين ومبكرا أن الدائرة الحقيقية لامتلاك الأسلحة النووية أوسع من الدائرة الرسمية ، لكن أسبابا لدى البعض جعلتهم يؤثرون السكوت تاركين الملفات نائمة فى الأدراج .

كذلك فإن الداعى إلى القلق لم يكن لأن ما حدث خروج سافر على معاهدة حظر الانتشار النووى والتجارب النووية ـ فلم يكن سرا على أحد أن بعض الدول وبينها الهند وباكستان وإسرائيل ـ امتنعت عن الالتزام بهذه المعاهدة فى حين أن معظم الدول العربية تمنعت أول النهار ثم لم تعد تمانع فى آخره !

وكـذلك لـم يكـن الداعـى إلى القلـق أن العـرب تخلفـوا عن العـصـر النـووى وتقـدم غـيرهــم ، فـقد أدركنـا من تجـارب سبـقـت أن عـددا من «الأصـدقـاء» ـ ! ـ تمكنوا من إقنـاع العـرب بإيثـار السـلامة ، وبأن التـسكع على الأرصـفـة فى التـاريـخ أكـثـر أمـانـا من التزاحـم وسـط مـجراه الخطـر ، وكان بين العـرب من وجـد ذلك مجلبة لراحـة القلـب وهـدوء الأعصـاب !

لكن وقـوع الشـىء ـ حتى وإن كـان ضـمن سيـاق طبيعـى ـ له بالضـرورة قـوة فعـل جــديـد . وفى حـالـة التـفجيرات النـوويـة فى شبـه القـارة الهـنـديـة (أوائل وأواخـر شـهـر مايو عـام ١٩٩٨) فـإن وقـوعـهـا كـانت لـه تأثـيـرات على هذه الأمـة العـربية تسـتوقـف النظـر ، وقـد تستـوجـب المراجـعة وإعـادة التقديـر :

- إن بلـوغ المرحلـة النـوويـة أصـبح المؤهـل الضـرورى لدخـول القـمة الدوليـة ، أو التـواجـد حـولهـا أو قـريبـا منهـا بدرجـة أو أخـرى . فقد قـام نظام الأمـم المتـحـدة ـ وعلى الذروة منه مـجلس الأمـن والـدول الخـمـسـة صـاحـبـة العـضـويـة الدائمـة فـيـه ـ على أسـاس امـتـلاك الأسلحـة النـوويـة : الموقـع الأول للولايات المتحـدة ، والموقـع الثانـى للاتحاد السـوفييتى (حتى بعد تقلصـه إلى اتحـاد روسـى) ، والموقـع الثـالث لبـريطانيـا ، والموقـع الرابع لفـرنسـا ـ بحكـم ظـروف تاريخيـة ـ ولكن الجنرال «ديجـول» رأى أن هـذا الموقـع لا يتـأكـد لفرنسا بالظـروف التـاريخيـة وحـدهـا وإنمـا لا بـد للتـاريـخ من تأكيـد معـاصـر ، ولـذلك كـان سعـيه إلى قـوة نوويـة فـرنسيـة مسـتقلة) (force de frappe ولعلـه كـان أول من يـدرك أن فـرصـة اسـتـعـمـالهـا فى الحـرب محـدودة ، لكنه رأى تأثيرها على السيـاسـة غـير محـدود . وكـان الموقـع الخـامس فى العـضوية الدائمة لمجلس الأمن للصين ، وبالرغـم من

ذلك فإن الولايات المتحدة ظلت مصرة على أن تشغل الصين الوطنية (تايوان) هذا المقعد ، وظل هذا الوهم سائدا حتى أصبحت الصين الشعبية (بكين) قوة نووية ، ثم كانت الولايات المتحدة أول من قرر أن الأوهام ليس لها مجال بين حقائق القوة ومن ثم فإن «تايوان» عليها أن تقوم و«بكين» من حقها أن تقعد .

- إن الهند وباكستان قررتا تخطى الحاجز النووى وكسر احتكاره بأى ثمن، وقد نجحتا وفى توقيت متقارب ، ومن الطبيعى أن ذلك سوف يستتبع سباقا نوويا فى شبه القارة الهندية ، وهو موقع شديد الكثافة إنسانيا ، وعميق التأثير حضاريا ، ومرتفع الحرارة سياسيا ، ثم إنه من الناحية الجغرافية كتلة عظيمة ، فاصلة وواصلة ـ بين الشرق الأقصى وبين الشرق الأوسط .

- إن الدول صاحبة احتكار الأسلحة النووية والراغبة فى استمراره ـ بصرف النظر عن أسبابها ـ لن تستطيع إيقاف هذا السباق لأن بلوغ المرحلة النووية يعنى عبور مرحلة معينة من مراحل النمو ـ كما يحدث على سبيل المثال فى نمو إنسان فرد من الطفولة ـ إلى الصبا، إلى المراهقة، إلى الشباب وهكذا ، فإذا بلغ أى إنسان فرد مرحلة من نموه ، أصبحت عودته إلى ما كان قبلها مستحيلة بالطبيعة .

وإذا كانت الدول صاحبة الاحتكار الدولى قادرة على منع غيرها من «النمو» النووى ، فقد كان المنطق أن يقع ذلك قبل ـ وليس بعد ـ التغيير النوعى للمراحل .

(وفى هذا المجال فإنه لا يصح الاستشهاد بسابقة وحيدة
ذات طبيعة مختلفة وهى تَراجُع جنوب أفريقيا عن خيارها

النووى بعد أن وصلت إليه . لأن مبعث هذا العدول لم يكن تغييرا طوعيا فى فكر الدولة ، وإنما كان تغييرا نوعيا فى طبيعتها . أى أن التغيير لم يكن من نووى إلى غير نووى ، وإنما كان التغيير من «أبيض» إلى «أسود» - ليس مسموحا بترك سلاح نووى فى يده !

وقد حدث بالفعل قبل انتهاء نظام التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا أن معامل جرى فكها، وأوراقًا جرى حزمها ، وكثيراً منها تم شحنه - سنة ١٩٩١ - إلى الولايات المتحدة وإلى إسرائيل التى كانت زميلا متعاونا مع المشروع النووى لجنوب أفريقيا ومتابعا نشيطا لتجاربه !

كذلك لا يصح القياس على حالات من نوع آخر فى القوة النووية يملك أصحابه كل الأسباب المادية والعلمية والتكنولوجية لصناعته ، لكن هذه الأسباب تنتظر قرارا سياسيا يصدر فإذا القوة حاضرة ، وتلك حالة بلاد مثل ألمانيا واليابان وكندا والسويد ، وربما غيرها .)

- إن النقطة الحرجة فى السباق النووى بين الهند وباكستان هى أن الإعلان عن بلوغ الحالة النووية - وهو فى حد ذاته دليل مقدرة - لم يقع فى مناخ من الثقة بالنفس مطمئن إلى امتلاك عناصر التفوق ، لكنه بواقع الأحوال ترافق مع مناخ معبأ بالأزمات الداخلية : سياسية واجتماعية واقتصادية . وهذه الأزمات أشد وطأة بتفاعلاتها مع مواريث عنصرية وطائفية وثقافية ضاغطة على البلدين وخانقة !

ومعنى ذلك بشكل من الأشكال أن الحالة النووية بالنسبة إلى البلدين -

الهند وباكستان ـ هروب إلى الأمام ـ لكنه يظل ومهما كانت الأوصاف نقلة نوعية فى إمكانيات القوة حتى وإن لم يكن تقدما بالمعنى الإنسانى الواسع الذى يشمل كل مناحى الحياة .

وذلك مجال للقوة لا يريح لأن ضيق مساحته يجعله ملهوفا إلى منفذ ومتنفس !

- إن ذلك أغلب الظن ليس مؤديا إلى حرب نووية بين الهند وباكستان ، لأن الذين يختبرون حقائق القوة النووية وطبائعها أول من يعرف تبعاتها ومخاطرها ـ لكن ذلك لا يمنع أن ما لاحظناه من قبل عن مراحل النمو فى عمر الإنسان الفرد ، يظل صالحا للتطبيق على عمر الظواهر بما فيها ظواهر القوة . فالقوة النووية الهندية والباكستانية تجاوزت مرحلة الطفولة عندما تجاوزت مرحلة البحث ، ووصلت إلى مرحلة الصبا عندما وصلت إلى مرحلة التجريب ، ثم بلغت مرحلة المراهقة عندما بلغت مرحلة الإعلان . وفى مرحلة المراهقة فإن التصرفات يمكن أن تكون مندفعة ، ولذلك فإن منطق الأشياء يقول إن السباق النووى سوف يتصاعد .

وإذا كان من غير المتصور ـ حتى فى مرحلة مراهقة القوة ـ أن تصبح الأسلحة النووية أداة جاهزة فى الصراع بين الهند وباكستان، فمن المؤكد أن هذه القوة النووية سلاح سياسى هائل فى هذا الصراع ، وهى كذلك فى غيره من الصراعات، وتلك هى الفائدة الأولى ـ حتى الآن ـ لهذا النوع من السلاح .

والشاهد أن الأمة العربية تعرف من تجاربها ما فيه الكفاية عن التأثير السياسى للقوة النووية :

ـ فالإنـذار السوفيتى تلميحا إلى صواريخ تحمـل رءوسـا نووية ضد لندن وباريس ـ أدى فى زمانه سنة ١٩٥٦ ـ وبصرف النظـر عما قيل لاحقا عن جدية الإنـذار أو عدم جديته ـ دورا مُهِمّـا فى معركـة السويـس .

ـ ثم إن فـشـل هذا العـدوان هو الذى دفع فـرنسا إلى تعـويـض إسـرائيـل بمفـاعلهـا النـووى العـسكـرى الأول فى «ديمونـة» ، وذلـك هـو المفـاعـل الذى ساعـدهـا على أن تصبح عضـوا ـ وإن خفيـة ـ فى النـادى النـووى ، وكـان ذلك مطلبـا فى خيـال «دافيـد بن جوريـون» منذ الأيـام الأولى لإنشـاء الدولـة اليـهوديـة ـ كـمـا قـال صراحـة فى مـذكـراتـه ، ثـم إن الاعـتـمـاد على الـرادع النـووى هـو الذى سمـح للسيـاسـة الإسرائيلية أن تكون أكثر عدوانيـة !

ـ وكـان اهتـمـام إسـرائيل المبكـر بإمكانيـات سـلاح نـووى هـو الدافـع إلى محاولـة مصرية فى الاتجاه نفسه ـ وكان ذلك أيضا فى أعقاب معركة السويس سنة ١٩٥٦ . وقد أضيف فى هذا السياق أن هذه المحاولة المصرية فى الاتجاه النووى كانت واحـدا من أسبـاب معركـة سنة ١٩٦٧ .

(ولمجـرد التسـجيـل فإنه فى أواخـر سنة ١٩٦٥ وأوائـل سنة ١٩٦٦ كـانت المسـافة بين المشـروع النـووى الإسـرائيلى وبين المشروع النـووى المصـرى ثمـانيـة عـشر شـهـرا ـ وفـق تقديرات دولية وأمريكية ـ وقد أصبح هـذا السباق النـووى بين إسـرائيـل ومـصـر أيامـهـا شـاغـل رئيـسـين فى البـيـت الأبيـض همـا «كنيـدى» و«جـونسون» ، وكـلاهمـا حـاول أن يقـدم للحكومـة المصرية فى ذلك الوقت ، وكتابة ، تأكيـدات وتعهـدات بأن البرنامج النـووى الإسرائيلى بعيد تماما عن أى مجـال حربـى) .

ـ وبالتأكيد فإنه لم يغب عن الذاكرة بعد أن وقف إطلاق النار لم يثبت فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ ـ إلا بعد تلويحات نووية تداخلت ظلالها بين واشنطن وموسكو .

ـ وأخيرا فإنه حين توجه الرئيس «السادات» بمبادرته الشهيرة إلى القدس سنة ١٩٧٧ ـ لم يجد «مناحم بيجين» رئيس وزراء إسرائيل تفسيرا مقنعا لهذه المبادرة ـ إلا أن «العرب يئسوا من الحرب مع إسرائيل نتيجة لانفرادها بالقوة النووية فى المنطقة» . ونفس المعنى ردده «إسحاق رابين» و«شيمون بيريز» و«بنيامين نتنياهو» أيضا .

● وإذا كان هذا كله صحيحا ـ وهو فى الغالب صحيح ـ إذن فإن السباق النووى بين الهند وباكستان، مع استحالة وقفه لأن الفرصة أفلتت ، ومع زيادة حدته فى مرحلة مراهقة القوة ، ومع زيادة تكاليفه على أصحابه فى مناخ أزمة ، ومع أهميته السياسية القصوى بالنسبة لأطرافه وانبهارهم بغوايته ـ سوف يسحب الطرفين ـ الهند وباكستان ـ ويأخذهما ، وربما يفرض عليهما طَرْق ـ أو فتح ـ أبواب يرونها مؤدية إلى ما هو مطلوب :

وأول المطلوب : باب يمكن الدخول منه للحصول على الموارد المطلوبة للتمويل أو بعضها .

والثانى : باب يمكن أن يؤدى إلى مجال تمارس فيه الهيبة السياسية النووية دورها .

والثالث : باب يمكن أن يقود إلى ترتيبات إقليمية تناسب وتساعد على تعظيم فائدة المكانة النووية الجديدة .

إننى مـدين لـلجنرال «شـارل ديجـول» بـدرس كـرره عـدة مرات فى لقـاء معه ، وكـان ملخص هذا الـدرس «أن من يريـد أن يتكلـم فى السيـاسة عليه النظـر قبلهـا إلى الخريطـة» !

وإذا تذكـرت الآن نـصـيـحـة «شـارل ديجـول» ، وعـدت إلى مـا كنـت أتحدث فـيه ـ فـإن كل الشـواهـد الظاهـرة فى شبـه القـارة الهنديـة تشيـر إلى الخليج العربى ، فهـو :

١ـ مصـدر مهيـأ بالموارد والثروة للتمويـل أو لنصيـب كبير منه .

٢ ـ مجـال قريـب وجاهـز بالجوار والقـرب لممارسة التأثير والنفـوذ .

٣ ـ سـاحة فـيـهـا وحـولهـا وفى كل الاتجـاهـات ـ عـناصر مـواتية لخطط أو ترتيبـات لخطـوط مواجهة أو مواجهـات سياسيـة جديـدة !

٤ ـ فضـاء مكشـوف بـالموقـع ـ وفـراغـات فى التـركيبة البشريـة تفـتح ثغـرات للنفـاذ .

٥ ـ ثـم تتبقى حقيقـــة أنه ليســت هنـاك أبـــواب أخـرى يمكـــن التســابـق إلى طَرْقِـهـــا أو فتـحـهـــا ، لأنــه إذا انـدفـعـت الهـنـد شرقـا تصطـدم بـالصين (وهى عـــدو رئيســـى متـفـــوق) ، وإذا انـدفـعـــت باكستـان فى نفس الاتجـــاه تـصـطـــدم بـالهـنـــد (وأسلحـتـهـا النوويـة أكثـر) ، وإذا انـدفـع البلـــدان شـمـــالا فـهـى أصـقـــاع روســيـا ، أو جنـوبـا فـهـى مـيــاه المحيط !

وإذن فهـو الخليـج على وجـه التعيـين والتخصيـص .

وإذا عدنا إلى استقراء الوقائع - فقد نجد أن تحرك شبه القارة الهندية نحو أبواب الخليج بدأ فعلا ، ومن قبل الإعلان عن التجارب النووية فى شبه القارة الهندية ، ومن قبله بكثير - وكانت باكستان هى البادئة ، فلأنها الأقرب بالموقع الجغرافى والعقيدة الدينية فقد قصدت إلى الخليج باحثة عن التمويل مبكرة من أيام الرئيس الباكستانى «ذو الفقار على بوتو» . والذى حدث - فعلا - أن ثلاثة أطراف عربية ساهمت بحوالى ألف ومائة مليون دولار - على الأقل - فى المشروع النووى الباكستانى ، وكان «ذو الفقار على بوتو» قد نجح (ما بين سنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٧٤) فى تقديم هذا المشروع لهؤلاء الأطراف الثلاثة باعتباره قنبلة إسلامية - يكون منها صك تأمين إضافى ضد القنبلة الإسرائيلية التى كان الكل يشعر بحرارتها ويصطنع البرودة إزاءها .

ومن المحتمل - وبقرائن لا يصح إهمالها - أنه كان بين دواعى الانقلاب العسكرى على نظام «بوتو» رغبة فى التخلص من أى التزام أدبى نحو الذين تطوعوا بمساعدته فى تمويل قنبلته على أمل أن يتحقق وعدها . ومن المحتمل والحال كذلك أنه كان من بين الأسباب التى دعت إلى الإصرار - غير المبرر وغير المفهوم وقتها - على إعدام «ذو الفقار على بوتو» ودون محاكمة - أن يضيع سر المشاركة العربية فى القنبلة الإسلامية - إلى الأبد بظن أن القبور أكفأ خزائن الصمت !

إن الأموال العربية ظلت تشارك فى تمويل المشروع النووى الباكستانى

على عهد الجنرال «ضياء الحق» ، وبعد إعدام «ذو الفقار على بوتو» ـ وتم ذلك عن طريق تحويل ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة مليون دولار إلى المشروع خصما من الأموال التى رصدها بعض العرب لحرب إحراج وإخراج الاتحاد السوفييتى من أفغانستان . ومن الغريب أن «ويليام جيتس» رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية السابق عرف بهذا الأمر فى حينه وأثاره مع الحكومة الباكستانية ، لكن ضرورات «حرب إسلامية مقدسة» ضد الشيوعية جعلت مدير وكالة المخابرات المركزية يكتم السر ويسكت !

على أننا إذا تركنا الماضى وأسراره الدفينة ، واكتفينا بالحاضر وإشاراته الدالة ـ فقد يسترعى نظرنا :

- أن هناك الآن آراء وطروحات تذكر بعلاقات الجوار والقربى وتقول ما معناه «إن باكستان معرضة لعقوبات دولية بسبب القنبلة الإسلامية ، وهذه العقوبات مؤثرة عليها بأكثر من تأثير عقوبات مشابهة على الهند . وبالتالى فإن المساعدة العربية لباكستان مطلوبة وضرورية وقد يكتشف العرب أنها ليست استثمارا ضائعا» .

- وأنه تبدت محاولات باكستانية على نحو ما لخلق الانطباع بوجود علاقة بين الصراع العربى الإسرائيلى وبين المشروع النووى الباكستانى ، وقيل ـ سواء كان القول دقيقا أو كان تخمينا أو كان مقصودا للتأثير النفسى ـ إن إسرائيل كانت على وشك ضرب المواقع النووية فى باكستان قبل ساعات من التفجير .

- وأنه جرى ربط هذا كله بالهند بشكل صريح وقيل أن إسرائيل ساعدت الهند فى تجاربها النووية ، وأنها على المستوى العلمى والعسكرى لم تكن

بعيدة ومن سنين عن الساحة الهندية ، ولذلك فإن «الوقت جاء لكى يعرف العرب ويتأكدوا من معهم ومن ضدهم فى شبه القارة الهندية» .

- وأن رئيس الوزراء الباكستانى «نواز شريف» رأى أن يزور بعض دول الخليج العربى ، وتكون هذه الزيارة أول انتقال له خارج باكستان بعد الهالة النووية الجديدة فوق رأسها !

وتلك مقدمات توحى أن الخليج العربى معرض لتساقط نووى تحمله الرياح إليه من شبه القارة الهندية . وقد لا يكون غبار هذا التساقط مشبعا بسموم الإشعاعات ، ولكنه ـ على الأرجح ـ مشحون بالمطالب وبعدها المطالبات . وإذا كانت باكستان قد سبقت ، فمن الطبيعى والمنطقى أن الهند لن تترك الأبواب مفتوحة لباكستان وموصدة أمامها . وإذا لم تكن الهند بلدا إسلاميا فلعله لا يغيب عن البال أن نصف الساكنين فى الخليج هنود أو من أصول وميول هندية .

إن هذه الضغوط على الخليج تتضاعف أثقالها مرتين : مرة بتناقص الموارد نتيجة لتدنى أسعار النفط ، ومرة بتزايد وحشة الجو المحيط بالمنطقة ، وفيها عراق غاضب (وله الحق فى الغضب) ، وفيها إيران متوجسة (ولها الحق فى التوجس) .

وإذا خطر للبعض أن الوجود العسكرى الأمريكى فى الخليج عنصر تأمين وطمأنينة ، فالحقيقة أن ظل الجغرافيا على التاريخ ثابت ، فى حين أن ظل البوارج الحربية على الشواطئ متحرك .

يتصل بذلك أن بعض المخاطر لا تنفع فيه أساطيل البحر والجو ، ولا يجدى ضربه بالقنابل والصواريخ !

ويتصل به أيضا أن البوارج الحربية تتحرك وفق إستراتيجيات لها أولويات مرهونة بالظروف ، وذلك كله يبعث برسالة شديدة الوضوح مؤداها أن الخليج العربى مكشوف .

وإذا تذكرنا أن الخليج إضافة إلى كونه الجناح الشرقى - هو بؤرة الأهمية الإستراتيجية لموقع الأمة كما أنه موطن واحد من أهم مواردها - إذن فإن انكشاف الخليج يضع الأمة أمام مسئولية طارئة عليها أن تسأل نفسها إذا كانت متنبهة لها ومستعدة لمضاعفاتها ، وهى مضاعفات لها تكملة ولها امتداد قد يتدافع من شوطئ الخليج إلى شواطئ البحر الأبيض .

□

حضرات السيدات والسادة

إن الرسالة الواصلة إلى قلب الأمة العربية تلفت النظر إلى انكشاف الخليج أمام التساقط القادم إليه بعد التجارب النووية الهندية والباكستانية - تصل إلى أصحابها فى ظروف غير مواتية من عدة نواح نفسية وعملية .

- من الناحية النفسية فهناك أن التفجيرات النووية فى شبه القارة الهندية جرت فى وقت ضعفت ووهنت فيه علاقات العالم العربى بالدولتين الكبيرتين فى شبه القارة الهندية ، وبالتالى فإن القلب العربى لا يملك ما فيه الكفاية من الأرصدة السياسية لكى يقوم بدور مؤثر فى شبه القارة الهندية .

وحتى عهد قريب كان أكثر من نصف العالم العربى على علاقة صداقة شديدة القرب من الهند ، ثم إن بقيته كانت على علاقة صداقة شديدة القرب مع باكستان . ولأسباب ما فإن العالم العربى حَوَّل عواطفه من الشرق إلى الغرب . وكان يمكن الاهتمام بالغرب دون أن يكون ذلك على حساب الشرق ، لكنه يظهر أن من بين العرب من يقبلون بتعدد الزوجات فى أحوالهم الشخصية ، وأما فى مجال علاقاتهم الدولية فالمزاج لا يحتمل التعدد . والغريب أن الظواهر تشير إلى أن رباطنا المقدس مع الغرب عاطفة من جانب واحد ، وأما من جانب الغرب فليس هناك وقت لغير الفرص والمصالح وإن أحاطت بها بعض المراسم كساءً من السكر الملون للترغيب ، لكن الأوهام العربية تعلق على المراسم بما هو أكثر من حقيقتها ـ تحسبها عهدا وعقدا ، وأصحابها لا يقصدونها كذلك .

والشاهد أن الذين كانوا أقرب من الهند تباعدوا ولم يعد يعجبهم ـ فيما يظهر ـ فقر «كلكتا» وزحام «بومباى» وفوضى «دلهى» ، خصوصا إذا قورنت بباريس ولندن وواشنطن !

ثم إن الذين كانوا أقرب من باكستان لم يعودوا شركاء لها فى أحلاف سياسية أو عسكرية (مقبولة أو مرفوضة) ، ثم تواضعت العلاقات إلى إجازات تعرف مغانى الجمال فى حدائق «شاليمار» (من ضواحى «لاهور») ، لكنها لا تعرف شيئا عن قفار «بلوخستان» (حيث جرت التفجيرات النووية الباكستانية) .

ولم تكن كل من الهند وباكستان قادرة على إخفاء خيبة الأمل من الأصدقاء العرب وتغير أحوالهم وتقلب أهوائهم . ومن المفارقات أن

إسرائيل سارعت تجرب ملء الفراغ الذى تركه الانسحاب العربى من شبه القارة الهندية (كما فى غيره من مناطق آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية) .

وإذن فإنه بين الحقائق السياسية الراهنة أن الطريق من القلب العربى إلى شبه القارة الهندية ليست سالكة !

ـ من الناحية النفسية أيضا فهناك حقيقة سياسية ثانية أكثر حساسية هى أن الطريق بين قلب الأمة العربية وبين جناحها الشرقى ـ ليست هى الأخرى سالكة ، فالأحوال التى أحاطت بالعالم العربى ومجموعات القيم التى تسربت إليه ـ غيرت طبائع العلاقات داخله . والذى حدث مع علاقات وملابسات لا داعى للتفصيل فيها الآن أنه من بداية السبعينات ـ تنازل قلب الأمة العربية عن دوره التاريخى فى العلم والثقافة والفنون ـ وراح يقدم نفسه إلى جناحها الشرقى بائعا للأمن والحماية ، ثم إن الجناح الشرقى للأمة تقدم إلى القلب مشتريا ، وهذه العلاقة بين بائع ومشتر راحت تتراجع من المستوى القومى إلى المستوى الوطنى ، إلى المستوى العائلى ، إلى المستوى الشخصى أحيانا .

وحين يتحوّل الجامع القومى إلى صفقات بيع وشراء فإن قوانين السوق لها الغلبة ، بمعنى أن المشترى يكون من حقه أن يختار من بين المعروض عليه ما يناسبه ، فإذا كانت السلعة هى مجرد «الأمن والحماية» فإن «الصناعة» العربية لها ليست الأكثر إتقانا أو الأكفأ أداء !

ولقد كان ذلك من بين ما دعا الأساطيل الأجنبية فى البحر والجو إلى التواجد والعمل فى منطقة الخليج ، ومن الحق أن نعترف أن ذلك تم قبل أن تنشب الحروب الإقليمية فى الخليج سواء فى ذلك الحرب العراقية ـ الإيرانية أو حرب غزو الكويت . والحاصل أن حكومات الخليج من البداية

فى مطلع السبعينات وحتى الآن لم تعهد بأمن وحماية أرضها إلى قلبها العربى ، وإنما آثرت لأسباب مفهومة أن تعهد بها إلى آخرين ، ومن الخلط أن يقول البعض أن حكومات الخليج عهدت بأمنها إلى «الغريب» بعد أن تعرضت للتهديد من «القريب» . وإذا كان «القريب» أخطأ ـ فإن «الغريب» كان دائما هناك .

على أن الحقائق الجديدة تتخطى الآن حسابات الدفاتر القديمة ، فهى تجيء باحتمالات لا تستطيع أساطيل البحر والجو أن تردها ، لأن أساطيل البحر والجو تستطيع فى لحظة بعينها أن تحمى المواقع والموارد ، لكنه ليس فى اختصاصها ولا هو فى مقدورها أن تحمى التوازن الإنسانى والهوية الثقافية وروابط القربى !

□

إن رسالة الخليج تصل إلى القلب العربى لتجده ـ بدوره ـ فى ظروف عملية غير مواتية .

وبصرف النظر عن أنواع مختلفة من الهموم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية تضغط على القلب فى وسط العالم العربى ـ فإن التفجيرات النووية الهندية والباكستانية تحمل إلى هذه المنطقة شواغل لا بد للقلب أن يوليها اهتمامه ويفكر طويلا وبعيدا فى معانيها واحتمالاتها . وبداية فإن هذه التفجيرات ليست من المعجزات الخوارق فى الطبيعة أو فى الزمن بحيث يتوجب على العرب أن يحبسوا أنفاسهم وهم يتابعون أخبارها

ـ لكنها بتصوير أسهل كتل ضخمة من الصخر وقعت على مسطح ماء فأحدثت فيه بالتناثر حالة فوضى ارتفع بعدها منسوب الماء وأعقب ذلك دوائر من التموجات راحت تتسع واحدة بعد الأخرى حتى وصلت إلى شواطئ العالم العربى ومنها إلى مراكز صنع القرار السياسى فيه .

إن الظروف فى قلب العالم العربى ـ أو فى مراكز صنع القرار فى وسطه ـ لم تكن ملائمة لحدث التفجيرات النووية فى شبه القارة الهندية فى ذاته، ولا كانت مهيأة لرسالة الخليج إلى القلب العربى ترقبا وتحسبا .

كان القلب العربى ومراكز صنع القرار فيه أمام مأزق لا يبدو له مخرج بسبب رهان عربى بكل الأرصدة على الولايات المتحدة ، وكان هذا الرهان بكل الأرصدة مطمئنا إلى مكاسبه عندما دخل يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٩١ إلى قصر «الشرق» فى مدريد . وكان حسابه فى ذلك أنه يتعامل مع ما بدا احتكارا للقوة الدولية تمسك به الولايات المتحدة فى عصر ما بعد الحرب الباردة ، وهى تسمح لآخرين بالشراكة فيه لأن ذلك يطمئنهم إلى البقاء داخله وترضى كلا منهم بدور لا يترك له سببا يدعوه إلى الشكوى أو الخروج على ما بدا فى ذلك الوقت وكأنه نظام عالمى جديد .

ولقد كانت لدى العرب ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥ ـ وحتى نهاية الحرب الباردة فى سنة ١٩٨٩ ـ أسباب قوية تدعوهم إلى اليأس من أى رهان على الولايات المتحدة . لكن مجمل الظروف الداخلية فى العالم العربى طوال السبعينات والثمانينات قادت مع بداية التسعينات إلى أنواع من الحرب الأهلية مكتومة أو متفجرة أتت على كثير من الأرصدة الإستراتيجية وحتى التاريخية . ثم أن القليل الذى بقى بعد ذلك لم يجد لنفسه أملا إلا برهان على الولايات المتحدة الأمريكية . وقد

بدا ذلك الرهان فى قصر «الشرق» فى مدريد محسوبا . . يحفظ ما هو باق ، ويزيد عليه ما أسموه بـ «السلام العادل» الذى يضمنه ما قيل بأنه «نظام عالمى جديد» ينطق باسمه ما وصف بأنه «الشرعية الدولية» التى تحملت «مسئولياتها» أخيرا إزاء القضايا العربية بعد طول إهمال وتنكر !

إننا نعرف جميعا ما جرى منذ تلك الأيام الباهرة فى أضوائها إلى هذه الأيام الغائمة فى أجوائها .

والذى حدث هو أن القضية العربية الكبرى لم تلبث أن تسللت من قصر «الشرق» فى مدريد ـ ثم مشت سرا وتحت جنح الظلام إلى بيت ريفى منعزل فى ضواحى أوسلو ـ ثم انكفأت عائدة مرة أخرى إلى حيث كانت ـ قبل مدريد ـ رصاصا داميا وقنابل دموع فى شوارع القدس والخليل وغزة .

وبهذه العودة من القصور الأسبانية إلى ميادين القتل العربية فإن نتيجة الرهان بكل الأرصدة على الولايات المتحدة لم تعد تسمح للاعب مهما كان ولعه بالقمار السياسى أن يواصل اللعب بمنطق تعويض الخسارة !

والحاصل أن اللعبة التى بدأت فى مدريد سنة ١٩٩١ انتهت واقعيا ثم انتهت رسميا .

واقعيا : فإن اللعبة انتهت باغتيال «إسحاق رابين» فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٩٥ . .

ورسميا : فإنها انتهت عند انتخاب «بنيامين نتانياهو» لرئاسة الوزارة فى إسرائيل فى ٣٠ مايو سنة ١٩٩٦ .

وكان ما حدث تطورا طبيعيا فى إسرائيل يمكن رصده وتحليله .

إن الصهيونية السياسية وهى حركة علمانية أتمت عملية بناء الدولة اليهودية فى فلسطين ، وهى دولة تقوم على أساس دينى .

وكانت الصهيونية السياسية العلمانية أقدر باستعدادها وكفاءتها على تحقيق حلم الدولة اليهودية ـ وذلك تم لها بالسياسة والسلاح وأية وسائل غيرهما لفرض الأمر الواقع .

لكن قيام الدولة وضرورات بقائها واحترامها بما يتعدى قوة الأمر الواقع دعا إلى بحث ضرورى عن جذورها وهويتها وبالتالى شرعيتها . وهكذا فإن الأسطورة الدينية عادت لكى تأخذ مكانها الذى تزحزحت منه جزئيا فترة إقامة وتأمين الدولة .

ومعنى ذلك أن نجاح المشروع الإسرائيلى أدى إلى تراجع الصهيونية العلمانية التى أنجزته وتلك ظاهرة منطقية ، فلو لم يستعد المشروع الإسرائيلى محتواه الأسطورى الدينى لما بقى للدولة اليهودية من أساس شرعى إلا أنها مغامرة استعمار استيطانى تم تنفيذه فى النصف الثانى من القرن العشرين ـ بعد قرون من عصر الاستيطان .

وكذلك كان صعود اليمين السياسى والدينى هو التأكيد ـ الذى لا بديل له ـ لشرعية الدولة ومستقبلها .

إن الأساطير الدينية بالطبيعة معتقدات لا تقبل التجزئة .

وحين لا يكون لشرعية الدولة أساس غير سلطان الأسطورة ـ فإن السلام بالمعنى الإنسانى مستحيل . . . لأن الأسطورة يتحتم عليها أن تجعل خريطتها مطابقة لعقيدتها .

وهكذا أصبح مأزق الشرق الأوسط مزدوجا : مأزق عربى صنعته الأوهام ، ومأزق إسرائيلى صنعته الأساطير !

ثم أصبحت المآزق هرما مثلثا مغلقا بمأزق أمريكى ـ بعد مأزق عربى ومأزق إسرائيلى ـ وذلك حين عجزت السياسة الأمريكية عمليا وقانونيا وأخلاقيا عن المحافظة على قواعد اللعبة كما وضعتها حين دعت الأطراف إلى الذهاب بأرصدتهم إلى رهانات قصر «الشرق» فى مدريد .

□

وسط هذه المآزق الخانقة والضاغطة على القلب العربى تصل إليه رسالة الخليج تحمل تداعيات التفجيرات النووية فى شبه القارة الهندية وتبعاتها ، ويكون رد الفعل الرسمى العربى نوعا من «التثاقل» ، ويكون رد الفعل الشعبى نوعا من «التسرع» .

وكلاهما يعنى أن القلب العربى ليس مستعدا للتعامل مع مستجدات طارئة على جناحه الشرقى ، وهذا بدوره يعنى أن تلقائية التصرفات ومصادفاتها قد تصبح دافع الحوادث وموجهها ، وهنا موقع خوف شديد لأنه قد يؤدى إلى انزلاق نحو صراع لا يقل خطورة عن الصراع مع إسرائيل ، وربما يثبت أنه أخطر .

إن ترك الزمام لتلقائية التصرفات ومصادفاتها قد يؤدى خطوة بعد خطوة إلى أن يجد العرب أنفسهم موضوع تجربة فى التطبيق الفعلى لنظرية «صامويل هانتنجتون» عن صراع الحضارات .

- الخطوة الأولى أن المأزق الذى وصل إليه الرهان العربى على الولايات المتحدة جرى وضع حسابه فى النهاية على التيار المدنى - العربى - القومى فى العالم العربى ، وقد أدى ذلك إلى ظهور أوسع للتيار الإسلامى باحتمال أن يكون بديلا أقدر على المقاومة فى موقف فشلت فيه - أو هكذا بدا - كل الاختيارات السياسية ، والشاهد أن الانتقال من صراع السياسات إلى صراع العقائد ظهر فى إسرائيل وانتشر حولها تعزيزا لقانون أنه «لا يفل الحديد إلا الحديد» - وإذن - هكذا يمكن أن يقال - فإن المطلق الإسلامى هو الأقدر على مواجهة المطلق اليهودى .

- الخطوة الثانية أن ذلك بمناخه المعقد قادر - فى زحام المواكب - على تعليق عباءة إسلامية على القنبلة الباكستانية . وبرغم أن رئيس وزراء باكستان من حرص على محاذير دولية ووطنية وقف يؤكد بشدة «أن القنابل لا دين لها» - فإن أصواتا مسموعة فى العالم العربى واصلت إلحاح أنها قنبلة إسلامية .

ولعلم البعض فإنه عندما تبين للولايات المتحدة الأمريكية أن المشروع النووى الباكستانى وصل إلى نقطة اللا عودة - وكان ذلك قبل التجارب النووية الأخيرة بثلاث سنوات - لم يحدث - كما لم يحدث مع الهند كذلك - أن قامت الولايات المتحدة بفرض حصار وشن حرب لإزالة ما يطلق عليه وصف أسلحة الدمار الشامل - وإنما قامت رسميا بإبلاغ الحكومة الباكستانية بما نصه «أنه فى حالة ظهور أدلة على تعاون نووى باكستانى مع أى طرف عربى فإن الولايات المتحدة سوف ترى نفسها مضطرة إلى توجيه ضربة «مباشرة» «سريعة» و«مؤلمة» للمنشآت النووية الباكستانية » .

- تجىء بعد ذلك خطوة ثالثة هى أن التيار الإسلامى فى المنطقة وهو تيار

له أصوله وجذوره ، يمد في الوقت نفسه وفي الحقب الأخيرة خطوط اتصال وقنوات تعاون مع تيارات فكر إسلامي في باكستان ، وهي تيارات لها إلهامها الخاص ولها تجاربها . ومن المحتمل أن يجد هذا التيار الإسلامي العربي - نفسه وبحسن نية مندفعا إلى اعتبار السباق النووي في شبه القارة الهندية سباقا بين مسلمين وغير مسلمين ، ثم تظهر ظلال قضية مثل قضية كشمير على خلفية السباق . ثم يكون اختلاط العقائد المشبوبة بالإيمان في حالة إحباط - مع يورانيوم مخصب في حالة نشاط - كتلة حرجة عالية الخطورة .

- إن ذلك - وهذه خطوة رابعة - بالتأكيد مثير لمشاعر قابلة للفوران في الهند ، مع ملاحظة أن اليمين الهندوكي هو الحاكم الآن في دلهي وأن نفوذه بحكم استقطابات سياسية واجتماعية وفكرية يتزايد في هذا البلد الكبير (وهو الآن وحده أكثر من خُمْس سكان العالم) ، وذلك يجعل الأجواء فيه مستعدة أو مستفَزَّة ، ويغذي ذلك إحساس في الهند بأن زمان القرب من العرب ذكرى من أيام حركة التحرر الوطني وسياسة عدم الانحياز ، وكلها ماض لا يعود !

- وخطوة خامسة هي أن العرب قد يصبحون بالتورط أو التوريط طرفا في صراع باكستاني - هندي ، يتحوَّل حتى دون قصد مقصود إلى صراع حضارات إسلامي - هندوكي تثور عواصفه ويشتد هبوبها نازلا بالذات على الخليج العربي المُعَرَّض والمكشوف .

- ثم خطوة سادسة هي أن إسرائيل تتابع ما يحدث ، وتحاول أن تفتح ممرا إلى الهند . والخطر الحقيقي هو أن محيط الحضارة الهندوكي إذا احتك بالدائرة العربية في ظرف من الظروف وكان الاحتكاك في الخليج ، فقد

يكون من السهل الخلط بين المخزون الإسلامى فى قلب الحضارة العربية وبين التكوين العربى القومى بالتنوع الخصب لعناصره ، ثم يكون قرار الهند أن تتعاون ـ بالأفعال وليس بالإشارات ـ مع إسرائيل ضمن حركة صراع حضارات يمد يده من شواطئ الخليج إلى شواطئ البحر الأبيض.

. . . .

. . . .

إن الأمر والحال كذلك يضع على الأمة ثلاثة مهام إضافية ـ عاجلة وحيوية :

المحافظة على الخليج عربى الانتماء والهوية والمستقبل ، وفى الوقت نفسه العمل بكل الوسائل حتى لا تضيع الهند ويقع التورط فى صراع حضارات عربى إسلامى ـ هندوكى ـ وفى الوقت نفسه ـ أيضا ـ أن يكون الحرص على باكستان ، وهى بلد وثيق الصلات بالأمة العربية ، وطرف رئيسى فى حوار فكر إسلامى متجدد ومضىء تحتاجه الأمة الإسلامية الآن أكثر مما تحتاج إلى وهج انفجار نووى .

وقد نلاحظ على هامش هذا السياق أن يهود العالم نجحوا أخيرا وبعد قرون فى سحب «العداء للسامية» من مشاعر الغرب الأوروبى ، ثم تركوا الفراغ الناشىء بعد ذلك للحالة الإسلامية الراهنة وقد سحبها هذا الفراغ داخله وما زال يفعل . فإذا تحقق وبصورة كاملة أن العداء لليهود قد أخلى مكانه لعداء مع الإسلام ـ إذن فقلب العالم العربى وأطرافه فى حالة صراع حضارى ثان مع الغرب بكل ما يعنيه ذلك من مضاعفات .

وبمجمل ذلك كله فإن الأمة العربية ـ من الآن وإلى سنوات قريبة ـ أمام أسئلة كبيرة ، تكاد تكون أسئلة مصائر ومقادير .

وهكذا نصل أخيرا إلى أن أى نوع من «التثاقل» العربى الرسمى إزاء التفجيرات النووية فى شبه القارة الهندية ـ محاولة لنسيان الحقائق . ثم إن أى نوع من «التسرع» العربى الشعبى إزاء هذه التفجيرات قفزة فوق هذه الحقائق .

□

والآن ما العمل ؟ وكيف تستطيع الأمة أن تواجه مسئولياتها ؟

فى العالم العربى الآن رأيان فى الرد على هذا السؤال :

ـ رأى يعتقد بضرورة اجتماع عربى على مستوى القمة ، وذلك يبدو تفاؤلا يُمَنّى نفسه بالأمل وينسى دروس التجربة .

ـ ورأى آخر يعتقد بأنه لا فائدة من اجتماع عربى على مستوى القمة خصوصا إذا كان انعقاده مرهونا بضوء أخضر من خارج العالم العربى ، وذلك ـ بصرف النظر عن هَمٍّ ثقيل فيه ـ يبدو تشاؤما يطفئ بقايا شمعة تذوب لكنه ليس هناك غيرها فى ظلام هذا الليل .

والحقيقة أن كلا من الرأيين دليل أزمة عميقة تهدد الأمة فى مستقبلها ذاته وليس فى مجرد خياراتها .

إن الخمسين سنة الأخيرة ـ من نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ وحتى

آخر هذا القرن العشرين ـ استهلكت مرحلة من حياة الأمة ولم يعد باقيا لدى هذه المرحلة ما تعطيه للمستقبل .

وسواء كان ذلك النصف قرن خيرا أو كان شرا أو كان مزيجا من الاثنين ، فالحقيقة أن نهاية قرن تتوافق تماما مع نهاية مرحلة .

وحسابات الفلك تعلن قرنا جديدا عندما ينتهى قرن سبق ـ لكن حسابات الحياة لا تملك هذه الدقة بحيث يكون فى مقدورها أن تعلن مجيء مرحلة جديدة بعد انقضاء مرحلة قديمة ، بل ربما كان العكس هو الصحيح لأن تلك المرحلة التى استهلكت نفسها فى نصف القرن الأخير ما تزال مصممة من أجل استمرار بقائها على أن تستهلك الأمة ذاتها كى تضمن امتداد عمرها فى القرن القادم .

لكن اعتقادى أن الأمم أكبر من المراحل فى حياتها ، لأن الأمم باقية والمراحل عابرة .

وقد أقول إن مواقع الأمل الحقيقى فى نشأة ونمو مرحلة جديدة هى نفسها تلك المواقع الطبيعية لقوى المجتمع المدنى ومؤسساتها الأصلية ـ وليست المصنوعة ـ والتى كانت دائما حاضنة التجديد فى حياة الأمة ، وكانت ـ قبل التنظيمات السياسية ـ محيطا واسعا وُلدت ونشأت فيه كل عوامل النهوض والتقدم ، وهى فى هذا العصر تجدَ نفسها فى كل بلد عربى ، على تواصل فعال وخلاق مع مثيلات لها على رقعة العالم العربى وعلى اتصال حى بحركة دنياها الواسعة ، وفوق ذلك تجد نفسها مدعومة ومعززة بثورة فى وسائل الاتصال والمعلومات تصنع ظاهرة جديدة تماما وغير مسبوقة فى التاريخ الاجتماعى والسياسى للأوطان ولما حولها إلى آخر المدى .

وإذا جاز لأحد أن يتطلع بأمل إلى مستقبل ، فقد أجازف بالإشارة إلى ضرورتين على الطريق إلى أى مستقبل :

- الضرورة الأولى أن تنزع الأمة نفسها من فكرة الهزيمة التي أصبحت وسيلة معتمدة لإخماد حيويتها ، وبحيث أصبح تخليد وتأبيد الهزيمة وسيلة لتبرير العجز والقعود . إن رجلا يمكن أن ينهزم ، وجيشا يمكن أن ينهزم ، ونظاما يمكن أن ينهزم ، ومرحلة يمكن أن تنهزم - ولكن الأمم لا تنهزم إلا فى حال انهزام إرادتها ، وتلك هى العبرة الأهم والأكبر فى كل صراعات التاريخ قديما وحديثا .

- والضرورة الثانية أن مستقبل الأمة قادر على الوفاء بوعده إذا هى استوعبت عمق وضرورات الحقائق التى صنعها اتصال الأرض والتاريخ واللغة والثقافة والمصلحة والأمن بين شعوبها . وإذا كان الرئيس «شيراك» يذكرنا بأن اللسان وحده جامع - فكيف باللسان مضافا إليه القلب والعقل مضافا إليهما الضمير والحس وجميعها فوق أرض واحدة وعلى أرضية مشتركة .

وأقول فى النهاية : إن استعادة ثقة الأمة في نفسها وثقتها بمستقبلها المشترك - هو فى حد ذاته المعادل السياسى لمائة ترسانة نووية .

رقم الإيداع ٩٦٢٤/٩٨
ISBN 977 - 09 - 0476 - 7

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)